عبرٌ ودلالات

من سورة يوسف

إعداد

د. عبد الله بن علي بصفر

دار نور المكتبات

عبرٌ ودلالات

من سورة يوسف

إعداد

د. عبد الله بن علي بصفر

دار نور المكتبات

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

ⓒ الهيئة العالمية لتحفيظ القران الكريم ، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بصفر ، عبدالله بن علي
عبر و دلالات من سورة يوسف. / عبدالله بن علي بصفر .- جدة ، ١٤٢٧هـ
٦٥ ص ؛ ٢٤ سم
ردمك: ٣-١٧٥-٥٢-٩٩٦٠

١- قصص القرآن ٢- القرآن - سورة يوسف أ.العنوان
ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٢٧/٣٦١

رقم الإيداع: ١٤٢٧/٣٦١
ردمك: ٣-١٧٥-٥٢-٩٩٦٠

دار نور المكتبات
السعودية - جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي
هاتف وفاكس: ٦٨٣٨٠٥١ - ص.ب: ٤٠٣٧٤ - الرمز البريد: ٢١٤٩٩

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

ⓒ الهيئة العالمية لتحفيظ القران الكريم ، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بصفر ، عبدالله بن علي
عبر و دلالات من سورة يوسف. / عبدالله بن علي بصفر .- جدة ، ١٤٢٧هـ

٦٥ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك: ٣-١٧٥-٥٢-٩٩٦٠

١- قصص القرآن ٢- القرآن - سورة يوسف أ.العنوان
ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٢٧/٣٦١

رقم الإيداع: ١٤٢٧/٣٦١
ردمك: ٣-١٧٥-٥٢-٩٩٦٠

دار نور المكتبات

السعودية - جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي
هاتف وفاكس: ٦٨٣٨٠٥١ - ص.ب: ٤٠٣٧٤ - الرمز البريد: ٢١٤٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين ،، وبعد :

فاخترت ضمن خطب جامع منصور الشعيبي إلقاء الضوء والتأمل في سورة يوسف عليه السلام ، الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم عليهم السلام ؛ أولاً لما فيها من العبر العظيمة والدلالات الكبيرة من أن العاقبة للمتقين كما قال تعالى في هذه السورة : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] ، وهذا درس مهم لكل مؤمن لأن الحياة من طبيعتها التنغيص والمشاكل والهموم ، وكما جاء في الأثر : (ما قرأها محزون إلا صرف الله حزنه) وخاصة الدعاة إلى الله عز وجل الذين يقومون بهذه المهمة العظيمة ؛ مهمة الأنبياء والمرسلين ، ويتعرضون لما يتعرضون له من تعب ونكد ، فلا بد للمؤمن من الصبر ، والصبر كما قال عليه الصلاة والسلام : (الصبر ضياء)[2]، وكما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ

---

(١) يوسف : ٩٠ .

(٢) رواه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً .

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ فلعل هذه التأملات تعين المؤمن على التدرب على الصبر ، ولا شك أنه لا يمكن لمسلم أن يقرأها إلا ويبكي ، وهذا البكاء يولد التأثر ، وهذا التأثر يأتي بالتغيير ، والذي به تتجدد الحياة ، وبهذا التجدد يواصل المؤمن سيره في هذه الحياة من نجاح إلى نجاح ، ومع هذا النجاح يتحقق الفلاح والهداية والصلاح الذي يريده الله سبحانه وتعالى لخير الإنسان على وجه هذه الأرض .

نسأل الله تعالى أن يحقق هذه الفوائد عند التأمل والتدبر في هذه السورة العظيمة ، والقصة الكريمة .

وكتبه :

د. عبد الله بن علي بصفر

تمهيد

أما بعد فيا أيها الأخوة الكرام ويا أحباب رسول الله ﷺ سنتحدث بإذن الله تبارك وتعالى عن وقفات مع سورة يوسف عليه السلام ، نستلهم منها دروساً وعبراً ودلالات ، نستعين بها في مواجهة هذه الحياة المليئة بالمنغصات والمكدرات.

هذا هو النبي الكريم ، ابن النبي ، ابن النبي ، ابن النبي ، كما قال ذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : (الكريمُ ، ابنُ الكريمِ ، ابنِ الكريم ، ابنِ الكريم ، يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم عليهم السلام)[1].

وسورة يوسف سورة عظيمة ، وسورة كريمة ، وهي مكية نزلت على النبي ﷺ في مكة ، وجاء أيضاً أنها نزلت عليه في عام الحزن الذي توفيت فيه خديجة رضي الله عنها ، وتوفي فيه عم النبي الذي كان يدافع عنه ويحامي عنه ؛ فَسُمِّي ذلك العام بعام الحزن ، فنزلت هذه السورة بلسماً شافياً ، وتطميناً وتأنيساً لرسول الله ﷺ ، وتذكيره بالأنبياء السابقين ، وما نزل بهم من البلاء والمحن ، ولذلك كان عطاء بن رباح ـــ وهو أحد علماء التابعين وتلميذ عبد الله بن عباس رضي الله عنه ـــ يقول : ما استمع أحد إلى سورة يوسف إلا استراح وخرج مابه من هم ومن غم .

---

(١) رواه البخاري (٣٣٨٢).

فهي مؤنسة لمن كان في كرب فقرأها فرج الله عنه كربه، ونَفَّسَ عنه ذلك الهم، وصرف عنه ذلك الغم ، وعلم وتيقن أن بعد العسر يسراً ، وأن الفرج مع الصبر ، وأن النصر مع الصبر .

سبب نزول السورة :

ولقد جاء في بيان سببها : أن نفراً من اليهود أرسلوا إلى مشركي مكة ليمتحنوا رسول الله ﷺ ، فقالوا للمشركين : سلوه عن نبي من أنبياء الله خرج من أرض الشام إلى أرض مصر ؟ سلوه عنه وعن أخباره ؟ فلما سأله أهل مكة ، أنزل الله تبارك وتعالى عليه هذه القصة كاملةً غير مجزأة ، مع أن هناك قصصاً كثيرةً نزلت في القرآن مجزأةً جزء منها هنا وجزء منها هناك ولكن هذه السورة نزلت كاملةً مجملةً في بيانها وتفصيلها وذكر الإمام القرطبي أن في ذلك حجة ودليلاً على أن الله تبارك وتعالى تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن مفرقاً أو مجتمعاً فلم يأتوا به لا هكذا ولا هكذا [١].

وأيضاً جاء في سبب نزولها : أن الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم وهم في مكة قالوا لرسول الله ﷺ بعدما نزل عليهم شيء كثير من القرآن ، قالوا : يا رسول الله ! لو قصصت علينا ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾[٢].

---

(١) انظر «تفسير القرطبي» (٩/ ٧٩ ، ٨٠) ط. دار الكتب العلمية. وهو هُنا بتصرف منه.

(٢) «تفسير القرطبي» (١/ ٧٩)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٢٤) ط. ابن حزم.

بدايات السورة :

وتبدأ هذه السورة الكريمة بقوله ﷻ بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾﴿ الٓرۚ ﴾ وقد ذكر العلماء أن هذه الحروف لها معانٍ كثيرة ، ومن أشهرها وأوضحها : أن الله تحدَّى بها العرب الذين كانت لديهم الفصاحة والبلاغة والبيان ، فقال لهم : إن هذا القرآن المعجز مُرَكَّبٌ من هذه الأحرف (ألف ــ لام ــ راء) وغيرها من حروفكم ، فلتأتوا بمثله ؛ وهي لغتكم وأنتم سلاطين الأدب واللغة ، والفصاحة والبيان ، فعجزوا ؛ فكان هذا دليلاً على عظمة كتاب الله تبارك وتعالى وتحديه لهم .

﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ وتلك اسم إشارة للبعيد للتعظيم ، ولرفع شأن القرآن الكريم ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ لعلكم تعقلون وتفهمون يا معشر العرب ، فلم يترل القرآن بلغةٍ أخرى فيستعجم عليكم ، فلم تفهموه و لم تعوا معناه ، ولكنه نزل بلغتكم .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ : (وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض وابتديء إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان ، فكمل من كل الوجوه ، ولهذا قال تعالى: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ ،

أي : بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن)[١].

أحسن القصص :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ سَمَّى الله هذه السورة أحسن القصص لما احتوته من العجائب ، ولما اشتملت عليه من الكَرْب والفرج ، ومن الفَقْرِ والغِنى ، ومن ذكر العبيد وعامة الناس ، والفقراء والسلاطين ، ومن ذكر أمور الدنيا وأمور الآخرة ، ومن ذكر الخير والشر ، فاشتملت على معانٍ وعبر عظيمة لا غنى للمسلم عنها ، وعن فهمها ، فَسمَّاها الله تبارك وتعالى : أحسن القصص .

﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ لم تكن عارفاً بهذه القصة قبل أن يسألك هؤلاء الناس عنها ، ولكن الله تبارك وتعالى بينها لبني إسرائيل ، وبينها لمشركي مكة ، فكانت كما كانت في كتبهم ـــ في التوراة ـــ بل وأكثر وتفصيلاً ؛ فقد زادها الله تبارك وتعالى بياناً وإيضاحاً ؛ إفحاماً لهم وتعجيزاً.

يوسف ﷺ والرؤيا :

ثم قال ﷻ : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ رأى هذه الرؤيا وقد كان عمره عشر سنوات عليه السلام ، فكانت إيذاناً من الله تبارك وتعالى بظهور كرمه في هذا العبد ، ويوسف عليه السلام هو أخو بنيامين من أم واحدة ، وبقية إخوته العشرة من أمهات مختلفة ، من الإماء

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٢٤).

ومن غير الإماء ، أما أم يوسف عليه السلام فهي رحيل ، وهي آخر من تزوجها يعقوب عليه السلام ، فولدت له يوسف ، ثم ولدت له بنيامين ، وماتت في نفاس بنيامين ، فلذلك تعلق قلب يعقوب بيوسف عليهم السلام أولاً لأنه صغير ، وثانياً لأن أمه قد ماتت ، فتعلق قلبه بهؤلاء الضعاف عليهم السلام ، ويقال إن الإنسان إنما يتعلق قلبه بالصغار من ولده أكثر من غيرهم ؛ كما قالت أم الحسن : ثلاث من الصغار أو من الأطفال يتعلق القلب بهن : الأول : الطفل الصغير حتى يكبر ، والثاني : المسافر حتى يعود ، والثالث : المريض حتى يشفى ، فالأب إنما يَحِنُّ ويميل قلبه لأبنائه إذا كانوا من هؤلاء الثلاثة .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ أحد عشر كوكباً : إخوته وكانوا أحدَ عَشَرَ رجلاً ، والشمس والقمر : أبوه وأمه ، كما فسرت هذه القصة في آخرها .

قال ابن عباس وقتادة : الكواكب إخوته ، والشمس أمه ، والقمر أبوه .

وقال قتادة أيضاً : الشمس خالته ، لأن أمه كانت قد ماتت ، وكانت خالته تحت أبيه [١].

كلُّ ذي نعمةٍ محسود :

ويوسف عليه السلام ــ كما ذكرنا ــ كان في سنٍ صغيرةٍ ، ولكن الذي آتاه الله من العلم والحكمة ، عرف أن لهذا الطفل شأناً ، وأن لهذا الفتى الصغير أمراً

(١) «تفسير القرطبي» (٩/ ٨١).

عظيماً فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾ و (الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)[1]؛ الرؤيا الصالحة كما كانت لنبينا ﷺ ، ولم يبق من آثار النبوة إلى اليوم إلا الرؤيا الصالحة ، فهي من آثار النبوة الباقية إلى اليوم وإلى يوم القيامة .

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ ﴾ عرف حسدهم ، وعرف منافستهم لهذا الغلام الذي سيمتاز عليهم مع صغره ، ولذا أمره بألا يُظهر أمر رؤياه لإخوته لأنها نعمةٌ عظيمة يحسدونه عليها ؛ ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ وهذا من إلهام الله ﷻ ليعقوب عليه السلام ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ هذا من كلام يعقوب يواصل حديثه مع ولده الصغير ، ويبشِّره بالنبوة ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يصطفيك ويختارك ؛ فيبشره بأنه سيكون نبياً في مستقبل أيامه ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ هذه الأولى ، ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾ هذه الثانية ، فيكون عالماً بتفسير الرؤيا ، والثالثة ﴿ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ ﴾ بالملك والمال ، والعز والسلطان ﴿ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ ﴾ يعني بالنبوة من الله تبارك وتعالى ، فأكرمه الله ﷻ بالنبوة ، وبتأويل الأحلام ، وبالملك والسلطان عليه السلام ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ عليم بمن يختار لهذه النبوة ، ومن يصطفي ومن يجتبي ، ولذلك ما كان أخوة يوسف أنبياء ، وإنما يوسف عليه السلام فقط هو النبي ابن النبي ابن النبي ابن النبي ، أما إخوانه فما كانوا أنبياء ، ولا مرسلين لأن الله ﷻ اصطفى يوسف عليه السلام من بينهم .

---

(١) رواه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً.

غيرةُ أخوة يوسف عليه السلام ومكرُهم :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ ليست آية ؛ بل آيات وعبر وعظات ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ يوسف وبنيامين ، لما يروا من اهتمام والدهم بهما ، وعنايته بهما ، وكيف لا يعتني بهما وقد فقدا أمهما وهما صغيران[1] ؟! ، وقد عرف أن أحدهما وهو يوسف عليه السلام سيكون نبياً ، وسيكون له شأنٌ ؟! فكيف لا يعتني به ؟! ، وكيف لا يهتم ؟! ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ ونحن أقوى وأمنع وأنفع إلى أبينا من هذا الغلام الصغير ، والعصابة التي تتعصب بعضها مع بعض فتكون قوة متناصرة ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : إن أبانا لفي خطأ بهذا التفضيل ، وليس معنى: ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ هنا بمعنى الضلال في الدين ، وإلا لكان هذا كفراً منهم ، لأن يعقوب عليه السلام نبي من أنبياء الله تبارك وتعالى .

ثم قالوا : ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾ قَسَتْ قلوبهم إلى درجة أن يقتلوا أخاهم ، بلغ الحقد والحسد بهم مَبلغاً عظيماً ، وهكذا يكون الحسد والعياذ بالله عز وجل ، إذا تسلط على الإنسان أعمى بصره وبصيرته ، فيجمد قلبه ويقسو ويشتد حتى لا يكاد يرى الطريق السوي أبداً ، ولأجل هذا جاءَت شريعة الإسلام بالعدل بين الأولاد ، والمساواة بينهم ، وعدم تمييز بعضهم على بعض ، لا في مظاهر الحب ولا في العطاء ، لأن التمييز بينهم يؤجج العداوات والأحقاد ، والغل والحسد .

---

(١) انظر « البداية والنهاية » (١ / ١٩٧) ط. مكتبة المعارف بيروت .

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ ارموه في الصحراء البعيدة حتى يموت ويهلك من الجوع والعطش ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ يتفرغ لكم أبوكم ، ويعتني بكم ، ويهتم بكم ، ويكون أكثر لقائه معكم ، ثم توبوا بعد ذلك !!.

وهذا الذي قاله إخوة يوسف عليه السلام من وساوس الشيطان ؛ يوسوس للإنسان : الآن سافر واعصِ ربك ، ثم إذا رجعت تأتي بعمرة ، وتطيع الله سبحانه وتعالى ، وتستغفر وتتوب !! ، هذا من مكائد الشيطان ، فإن الله تبارك وتعالى هو العليم وحده : هل يتمكن هذا الإنسان من التوبة أم لا ؟! ولو نوى الإنسان التوبة بعد المعصية ؛ هل سيدركها ؟! وهل ضمن أنه بعد ما يذنب يعود سالماً ؟! ويتوب إلى الله تبارك وتعالى ؟! وأن الله سيتقبل توبته تلك ؟! ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1] المؤمن لا يأمن من مكر الله تبارك وتعالى ؛ كما قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه : لو أن إحدى قدمي في الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله .

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهو كبيرهم ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ دَلَّهُم على رأيٍ ألهمه الله تبارك وتعالى إياه ؛ أن لا يقتلوه وأن يلقوه في غيابة الجُب ، والجُبُّ هو البئر ، وغيابةُ الجُبِّ : أي المكان الذي يغيب فيه فلا يراه أحد ، يُرمَى في البئر ، في المكان الذي لا يُرى

---

(١) الأعراف : ٩٩.

فيه أحد ، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : غيابت الجب ، أي : قعره على راعوفته ؛ وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائح ؛ وهو الذي ينزل ليملي الدلاءَ إذا قَلَّ الماء[1]. ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ تأتي قافلة فتمر فتأخذ هذا الغلام ، ويبعدونه عنكم ، وتستريحون منه.

وعادوا يحاولون مع أبيهم ؛ ويتوددون إليه ، حتى يستخرجوا منه يوسف عليه السلام.

مؤامرة للخلاص من يوسف ﷺ :

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾ جاءوا بالكلام اللَّيِّن الكاذب ؛ وهكذا يكون الكذاب والمحتال الذي يأتي إلى الناس فيظهر إليهم أنه طيب ، وأنه صادق ، وأنه يريد الخير ؛ فكذلك يقول هؤلاء : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾ أي أننا نريد نصيحته ، نريد له الخير ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ الرتع : هو كثرة الأكل من الفواكه والأطعمة في البادية وفي البرية ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ وكذبوا على الله ، وكذبوا على نبي الله ، وأعطوا المواثيق ، وخانوا عهد الله وعهد نبيه .

﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾ ما تعوَّدتُ أن أفارق يوسف ، ما تعودت على فراقه فهو معي ليلاً ونهاراً ﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴾ أعطاهم الحجة بلسانه ، ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ وأُخِذَ من هذا أن الإنسانَ إنما يُسلَّطُ عليه ما يخافه ، ولو أنه لم

---

(١) « البداية والنهاية » (١ / ٢٠١) .

يخف غير الله لم يُسلَّط عليه شيءٌ . ويؤخذ منه كذلك : أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يذكر مخاوفه عند من لا يوثق من محبته ونصحه ، لئلا يستغلها ضده ، ويَنفذ إلى أذاه من خلالها.

وقيل : إنه رأى ذلك في المنام عليه السلام ، رأى يعقوب أن يوسفَ يأكله الذئب ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ بعد هذا الكلام أَسرُّوا إلى يوسف عليه السلام بأن يخرج معهم ؛ فطلب يوسف من أبيه أن يسمح له بالخروج مع إخوانه ، فلما ذهبوا به وأخذوه من أبيه ، ووضعوه على أكتافهم ، وهم يكرمونه ويقبلونه ، وأخذ يعقوب ينظر إليهم ، ويرى هذا التكريم ، وهذه المحبة ، حتى غابوا عن أنظار يعقوب ؛ وعندها ألقوه على الأرض ، وضربوه وشتموه ، فَتعجب يوسف عليه السلام من تغيرهم وتغير أخلاقهم ، كيف كانوا ؟! وكيف أصبحوا الآن ؟! وهكذا الحاسد ، وهكذا ذو الوجهين !!، وكلما التجأ يوسف عليه السلام إلى واحد من إخوانه ضربه ، فيلجأ إلى الآخر فيضربه فيلجأ إلى الآخر فيضربه ، وهكذا ؛ فعند ذلك عرف أنهم أجمعوا أمراً ، فلما ذهبوا به وأجمعوا على أن يجعلوه في غيابة الجب ، وألقوه في وسط البئر وألقوه في الدلو ونزل حتى وصل في آخر البئر على صخرة فجلس عليها ، ولم يترل في الماء ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ نزل عليه جبريل عليه السلام ليطمئنه بأن هذا من امتحان الله ومن ابتلاء الله ، وأن بعد هذا الضيق فرجاً ، وأنك بعد هذا الفرج ستخبرهم بأمرهم هذا ، وخبرهم هذا ، وفعلهم هذا ، وهم لا يشعرون، وما أجمل أن يأتي التطمين من الله تبارك وتعالى

وقت المحنة ، كما كان النبي ﷺ في غار ثور لما هاجر عليه الصلاة السلام . ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ وقيل إنه كان في عمر (١٢سنة) في ذلك اليوم الذي أُلقي فيه في البئر .

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ بعد المغرب جاءوا في الظلام حتى تكون أدوات الجريمة مختفية وغير واضحة، وغير ظاهرة، وهم ﴿ يَبْكُونَ ﴾ بكاء الكذب ، وليس بكاء الصدق، ولذلك شريح القاضي؛ لما جاءته امرأة تتقاضى عنده، وتشتكي ، وكانت تبكي وتبكي وتبكي، فقال له أحد الجالسين : إنها مظلومة . فقال له شريح : وهؤلاء إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون ، لا أقضي بالبكاء ، ولكن أقضي بالحق والعدل ؛ ولهذا لا ينبغي أن يتسرع المرءُ في الحكم متأثراً بالعواطف ، بل يتأنَّى ويسمع من الأطراف كلها ، ويتفحص الأدلة والقرائن ، حتى يتبين له وجه الصواب.

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ فأثبتوا على أنفسهم أنهم كانوا كاذبين وليسوا صادقين بهذه القولة : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ .

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ ﴾ ذبحوا شاةً وجعلوا الدم على قميص يوسف ، فلما نظر يعقوب عليه السلام في ذلك القميص ، ولم ير فيه شقاً ! ولم يرى فيه قطعاً أو تمزيقاً !! رآه قميصاً سليماً تعجب !! وقال : ما أحلم هذا الذئب على ابني ؟! يأكل ابني ولا يشق قميصه !! فتعجب عند ذلك وقال لهم : ﴿ بَلْ

سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ وهذا القول قالته السيدة عائشة رضي الله عنها لما اتهموها بالحرام ، اتهموها رضي الله عنها وأرضاها فقالت : لا أقول لكم إلا كما قال يعقوب عليه السلام ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ فجاءها الفرج بعد ذلك من الله تبارك وتعالى ، كما جاء الفرج ليوسف عليه السلام .

ويؤخذ من هذه الآية أن الكذبَ حبله قصير ، وأن الكذّاب سينكشفُ أمره إن عاجلاً أو آجلاً ، وأن الخائن الماكرَ ضعيفُ العقلِ ، فاسدُ التدبير ؛ وإلا فكيف يُعقل أن يأكل الذئبُ يوسفَ دون أن يمسَّ قميصه بأذى ؟! فلا يقطع منه قطعةً واحدةً ، ولا يمزّقه ولا يشقه !!.

خلاص يوسف ﷺ من البئر :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ أي قافلة ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ الذي يجلب لهم الماء ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ ﴾ فلما رأى يوسف هذا الدلو تمسك فيه فخرج من البئر ، فلما رآه ذلك الوارد ﴿ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾ وفي قراءة قال (يا بشراي) يا فرحتي ﴿ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ اعتبروه بضاعة وأخفوه عن أعين الناس ، حتى لا يأتي إنسان من أقاربه فيأخذه .

وهنا نتسائل ، لماذا لم يطلب يوسف عليه السلام أن يعود إلى أبيه ؟ ولماذا لم يتكلم بأمر إخوته وأنهم هم الذين ألقوه في البئر ؟ قيل : إنه سكت ، ووافق على أن يباع ويذهب إلى أرضٍ أخرى ، لأنه كان يعلم أنه لو عاد إلى إخوانه لقتلوه ،

فلذلك آثر البيع على القتل[١] . ﴿ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ ﴾ باعوه بثمنٍ زهيد ، بعشرين درهماً كما ذكر المفسرون [٢] حتى لا يشك أحد في أمرهم ، وحتى يتخلصوا من هذه المسألة ، حتى لا يطالبهم أحد بعد ذلك ، وكانوا فيه من الزاهدين ، وهم لا يعرفون قدره ولا مقداره ، ولا أنه سيكون من أنبياء الله ، ولا أنه سيكون من المصطفين الأخيار .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ ﴾ أي بعد أن باعوه على رجل في مصر ، وهو العزيز ؛ وزير المالية ، أي أن الأموال والأراضي والثمار ، كل ذلك تحت يده ؛ ويسمى عزيزاً فهو الذي اشتراه ، وكان عقيماً ، واسمه إطفير بن روحيب ، وزوجته اسمها زليخا.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾ قال أحد المفسرين أن أفرس الناس ثلاثة : أولهم هذا العزيز ؛ تفرَّسَ في يوسف عليه السلام فقال لامرأته : ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ ﴾ ، والثانية : امرأة مَدْيَنَ التي جاءت مع موسى عليه السلام ، وقالت : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾[٣] . والثالث : سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي استخلف عمر رضي الله عنه لعلمه بعدله فكان كما علمه وتفرس فيه وأكثر رضي الله عنه وأرضاه .

---

(١) انظر « تفسير القرطبي » (٩/ ١٠٢).

(٢) قال ذلك ابن مسعود وابن عباس والسدي وقتادة وعطية العوفي ، وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً. وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق: أربعون درهماً. فالله أعلم «البداية والنهاية» (١/ ٢٠٢).

(٣) القصص : ٢٦ .

قال: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ أصبح في بيت وزير المالية ، أصبح هو الآمر والناهي ، وهو المكرَّم والمعزَّز في هذا البيت ، بعد أن أُخرِجَ من البئر ، وبعد أن نجاه الله منه ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ من تفسير الرؤيا ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

يوسف عليه السلام في بيت العزيز :

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ بعد أن نجاه الله تبارك وتعالى ، أخرجه من أول المحن ، وهي محنة إلقائه في البئر، أخرجه الله تبارك وتعالى من تلك المحنة، وأسكنه كما ذكرنا في قصر العزيز ، وهو وزير المال عند فرعون ، فعاش عيشةً هنيةً كلها رغد ، وكلها راحة ، وكلها طمأنينة ورفاهية .

قال ﷻ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ﴾[1] قال المفسرون : أي بلغ (ثماني عشرة سنة) أي : تجاوز سن البلوغ ، ووصل إلى سن اكتمال العقل ، وإلى سن اكتمال الجسم ، فاكتمل عقلاً وجسماً . ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ آتيناه

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » (١ / ٢٠٣) : وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشُدّ ، فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : هو الحُلُم . وقال سعيد بن جبير : ثماني عشرة سنة . وقال الضحاك : عشرون سنة . وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقال السُدّي : ثلاثون سنة . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة . وقال الحسن : أربعون سنة . ويشهد له قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ ا.هـ.